

# تقديم الكتاب

كان الاستاذ « كلیمفدس وب » (١) من أساتيد الفلسفة بكلية المجدلية بجامعة أكسفورد . وقد ألقى سلسلة من المحاضرات في موضوعات فلسفية دينية في اسكتلندا والسويد والهند . وصنّف مؤلفات كثيرة أخصبت الحياة الفكرية في ميدان الدين . وما فتىء بعد اعتزاله العمل في الجامعة يكتب ويحاضر بقريحة اخترنت اختبارات الحياة ، ونضجت فيها ثمرات التفكير الطويل والدرس المتواصل

وقبل سنوات استدعته جامعة كلكتا في بلاد الهند ليلقي على طلابها سلسلة من المحاضرات في موضوع يختاره كيفما شاء ، في نطاق علم «الدين المقارن» او مقارنة الاديان . فوق اختياره على موضوع « فضل المسيحية على الاخلاق»

والكتاب الذي نقدّمه الآن لقراء العربية في الشرق الأدنى ، هو ترجمة تلك المحاضرات القيّمة التي ألقاها الاستاذ

الفيلسوف على طلاب جامعة كلكتا، والتي طبعت فيما بعد  
باللغة الانكليزية

وانا نسارع الى القول إن بعض فصول هذا الكتاب تبدو  
لدى القراءة السطحية العجلى جافة مُضنية . وهذا طبيعي ،  
فان موضوعات الفلسفة الدينية العميقة لا يستمتع القارىء لذتها  
الأ بعد التفكير والتروي

ونصيحتنا ألا يكتفي القارىء الكريم بقراءة الكتاب  
مرة واحدة . فانه كلما أوغل في استكناه معانيه العميقة ، أحس  
بلذة فكرية لا تدانيها لذة اخرى

وحسبنا ان يكون الغرض من هذا الكتاب — على حد  
قول المؤلف — خلق روح التبادل الحرّ ، والتعاون الطليق بين  
ذوي العقول المتدينة والافكار الحرّة

## تمهيد

ان الموضوع الذي وقع اختياري عليه هو فضل المسيحية على الاخلاق . وأرجو أن يُسمح لي أن ابيّن كيف أحسب هذا الموضوع داخلياً في نطاق علم الدين المقارن ، أو بعبارة اصحّ علم مقارنة الاديان

وعندي ان هذا البحث لن يقدر على تتبّعه الاّ باحث يعرف من اختبار ما هو الدين . اما الجالس على عتبة العقائد والممارسات الدينية ينظر اليها من بعيد، فليس له الى هذا البحث من سبيل . لن يقدر على الغوص في هذا البحر الاّ من تغلّغت في حياته العادية عناصر الايمان والدين والعبادة

وفي مقارنة الاديان المختلفة ، أراني مضطراً الى القول إننا سنكتفي في حالات معينة بدرس الظواهر الخارجية للدين ، دون الجوهر الداخلي ، وذلك حينما نمسّ الاديان التي لم يعد لها وجود عملي - كدين الاغارقة ودين الرومان - أو حينما نمسّ تلك الاديان التي يمارسها في هذا العصر أقوام ما زالوا في مستوى خفيض من الثقافة الذهنية . فانّا في أحوال كهذه لن يطول بنا التفكير في هذه الاديان ، ولن نجعلها موضوعات للبحث العلمي .

كذلك في الاديان التي يدين بها أقوام في طوقهم ان يعللوا  
« سبب الايمان الذي فيهم » ، فانا نرى ان دراسة هذه الاديان  
« من الخارج » في ظواهرها الخارجية لن تؤتي ثمارها ، وتكون  
ذات قيمة، إلا اذا تدخل فيها اختبار الذين يعرفون هذه الاديان  
« من الداخل » لضبط الافكار وتصحيح المواقف .

واني أحسبه تطفلاً مني ، اذا أنا حاولت ان أضع بياناً أو  
أقول قولاً عن دين ما ، للذين يعرفون هذا الدين في جوهره  
« ومن الداخل » ، بينا لا أعرفه أنا إلا معرفة سطحية « ومن  
الخارج » . لهذا السبب آثرت ان يقتصر بحثي على ديني ، الذي  
أعرفه في جوهره ، وسأشرح على قدر ما أوتيت من سعة في  
القول ، المبادئ الاخلاقية الأساسية التي تضمنها

واني أحسب ميدان الاخلاق ميداناً مفتوحاً لاي انسان  
يود أن يعمل فيه بعقله وضميره لاكتشاف مكنوناته ، ولكنه  
ميدان لا غنى فيه للكشاف عن الاختبار الديني ، لفرد أو  
لمجموعة من الافراد ، ليستعين به على كشف الحق الذي لن  
يقدر على التوصل اليه بدون هذا الاختبار . وكما سيحي لا  
يسعني ان اتكلم عن فضل المسيحية على النظريات الاخلاقية ،  
كما لو كنت اتكلم مثلاً عن فضل « افلاطون » الاغريقي أو

« كانت » الالماني . فاني لا اكون مسيحياً اذا لم أحسب  
لمسيحية « نقطة اجتماع الأشعة » التي ترى منها عين الكشاف  
في ميدان الاخلاق ، الاشياء في نسبها وأوضاعها الحقيقية . ومع  
هذا فاني لا افترض ان كل المعرفة الاخلاقية مستمدة تاريخياً  
من المسيحية . ولا أزعّم ان المسيحية التاريخية قد أنصفت  
وعدّكت في كل المبادئ الاخلاقية التي سلّمت بها

\* \* \*

وتمهيداً لبحثه، يبدأ الاستاذ « كليمندس وب » بشرح معنى  
الاخلاق ومعنى المسيحية في نظره :

### ما معنى الوجود ؟

من الميسور القول إن الاخلاق هي ما حسبه الناس  
« واما يؤدى » في ظروف مختلفة وازمنة مختلفة ، وهي المؤثرات  
التي تكوّنت بموجبها افكارهم ، وهي التصرفات الفعلية الناجمة  
عن تلك الافكار . من الميسور ان نكتفي بهذا القول دون  
التبسط في معنى كلمة « واجب » أو البحث في التعاليم المتفرعة  
التي ذهب اليها الفلاسفة في هذا الموضوع . على أن عقيدة  
الانسان في تلك الاحكام الادبية التي يصفها لا يمكن الا أن

تؤثر على الوصف الذي يذهب اليه . ولعلكم تريدون أن تعرفوا، وانا في صدد التحدث عن فضل المسيحية على الاخلاق، موقفي حيال المناقشات والمجادلات التي ثارت حول اصل الشعور بالواجب الادبي وقوته .

انما يجب أن يكون مفهوماً انه اذا اختلفت معي أحد في موقفي هذا تجاه تلك المناقشات ، فليس من الضروري ان يضطر تبعاً لذلك الى أن يرفض ما أقول عن تاريخ المسيحية وأثرها في التعامل الاخلاقية والسلوك البشري . وبعد هذا أرجو ان يسمح لي أن أبين وجهة نظري بياناً جازماً دون ايراد الادلة دفاعاً عنها، فان المجال لا يسمح لي بذلك اذا أردت انصاف الموضوع الخطير الذي أخذت على عاتقي معالجته الآن

واستطيع ان ابين وجهة نظري هذه ، في ايجاز وفي ايضاح، للذين يعرفون بعض الشيء عن الفكر الاوربي الحديث في الاخلاق، بقولي انني من اتباع «Kant كانت» الفيلسوف الالماني، حين يطلق على الآداب ما يسميه « categorical imperative » أمر جازم أو نهى قاطع»، وحين يصف شعور الواجب الادبي بأنه من العوامل الفاصلة في طبيعتنا الروحية<sup>(١)</sup> . واذ يصف « كانت »

---

(١) « Immanuel Kant عمانوئيل كانت » فيلسوف



عمانوئيل كانت الفيلسوف الألماني  
(١٧٢٤ - ١٨٠٤ ب.م)

الآداب بأنها « الأمر الجازم » ، يقصد اننا حينما نشعر اننا  
مكلفون أدبياً بفعل شيء ما أو الامتناع عن فعله ، فإن هذا لا

---

الماني من سلالة اسكتلندية من ناحية أبيه . وهو من مشاهير  
الفلاسفة الذين أنجبهم التاريخ . ومما يقوله انه كان بحكم مزاجه  
وطبيعته من طلاب المعرفة والساعين اليها . وقد ولد سنة ١٧٢٤  
وكان من سنة ١٧٥٥ الى وفاته في سنة ١٨٠٤ استاذاً في جامعة  
بروسية بالمانيا . ولذا يكون قد عاصر في الشطر الاخير من حياته  
الثورة الفرنسية . ويخيل الى كثيرين ان « كانت » قد اتمت  
في ميدان الفكر ما فعلته الثورة الفرنسية في ميدان السياسة .  
ذلك لانه هدم البناء القائم المصدع الاسس وشرع في بداية  
جديدة . ولقد اختط في مؤلفاته التي برزت في عالم الفلسفة ،  
طرائق من الفكر (مثل تعاليم ديكارت) لو سايرها الناس الى  
نتائجها الطبيعية لكانت معاول للهدم أشد في فعلها مما توقعه  
الذين بدأوها

ولم يشدد « كانت » في شيء قدر تشديده على طبيعة  
الالزام بلا قيد ولا شرط المتضمنة في الآداب الصحيحة السليمة .  
وقد ذهب الى ان اكثر كتاب الفلسفة الادبية لم يفهموا خواص  
الاداب بهذا المعنى ، وان تكن من تضاعيفها أحكام الضمير

يكون مجرد وسيلة نختارها لبلوغ غاية معينة . فالامر القائل :  
« افعل هذا اذا أردت أن تحصل على كيت أو كيت » أو « اذا  
أردت أن تكون كيت وكيت » هو ، في مصطلحات « كانت » ،  
امر نظري فرضي hypothetical imperative ليس إلا . لان في  
وسعي أن أتخلص من تنفيذ هذا الامر بقولي : « لا أريد هذا  
الشيء الذي تعلّقه على فعل معين ، ولا أريد ان أكون الشخص  
الذي لن أكونه إلا باتخاذ هذا النهج . أو على الاقل لست  
ارتضي ان أبدل هذه الكلفة ثمناً لهذا الفعل ، ولو اني عالم اني  
لن أحصل على ذلك الشيء ، ولن أكون ذلك الشخص ، إلا  
ببذل هذا الثمن »

### لا سبيل للتخلص من الشعور بالواجب الادبي

على انه لا سبيل الى التخلص من ذلك الواجب الادبي  
الذي يدعوه الفيلسوف كانت « الامر الجازم » . وارانى مضطراً  
الى اتخاذ طريق ما ، رضيت أو لم أرض ، رجحت منه أو كنت  
من الخاسرين . وسألوم نفسي لو لم أفعله مهما تكن النتائج .  
ولا شك انه قد يكون من الصعب ان نستوثق من اضطرارنا  
الادبي هذا في حالة معينة بالذات ، فقد يكون لنا ما نسميه

«الضمير البطل»، ونشعر بشيء من الغضاضة في فعل اشياء تعودنا أن نحسب «خاطئة» ولو أننا نكون قد اقتنعنا الآن انها بريئة، لا عيب فيها. ولكن ما لم يكن فينا ذلك الشعور الذي نسميه «الواجب المطلق» وهو يختلف في طبيعته ونوعه عن الشعور الذي نساق اليه لبلوغ غاية معينة عن طريق وسيلة معينة - نقول ما لم يكن فينا هذه الشعور «بالواجب المطلق» المجرد عن كل القيود والشروط، فاننا لا تقدر أن نختبر تلك الصعوبة أو نتألم من هذا الاحساس الذي لا مبرر له. فالشعور بالواجب الادبي، اي التمييز بين الخطأ والصواب، هو في نظري، شيء آخر غير تقدير الاشياء في ضوء ما تشبعه من غايات أو تحققه من خير.

ولو ان هذا قد يكون صحيحاً، بحيث يخيل الينا الاول وهلة اننا قد نضطر لفعل شيء أو الامتناع عن فعله دون أن نتظر من ورائه خيراً أو مرضاة لنا، نقول ولو ان هذا قد يكون صحيحاً، فان من المتناقضات الظاهرية في الحياة البشرية أن الانسان الذي يحسُّ حقاً بالواجب الادبي لن يشعر باللذة والرضى في فشل يتحقق، كما ان احداً لا يسعه أن يجد الرضى والغبطة في القيام بالواجب الادبي على هذا النحو مهما لقي في

سبيله من عناء أو خسارة . وان وجد هذا الرضى وتلك الغبطة فلن يكونا من النوع الذي يلقاه الانسان في مصادر اخرى . ولا أقصد انهما يكونان رضى أقوى وغبطة أشد ، كلاً فقد لا يكونان كذلك . ولكن لن يفضلهما أنواع أخرى من الغبطة الصادرة عن اشياء غير القيام بالواجب الادبي .

فالانسان مثلاً قد يرى أن يضحي بمزية العيش في طقس يلائم صحته ليتمكن من حرية الانتقال الذي يضمن له ايراداً كبيراً . وهذه المزايا من النوع التي يسميها بعض الكتاب مزايا اقتصادية . ولكن حينما يرى الانسان ، لباعث ما ، ان يخالف ضميره وشعوره بالواجب الادبي ، فانه قد يستبعد فكرة مخالفة ضميره ، ولكنه لن يستبعد لوم نفسه كلما استذكر هذه المخالفة . ولوم النفس في عرفي يختلف كل الاختلاف عن الاسف أو الحرمان من متعة كان يود الحصول عليها ، لولا ان في الحصول عليها ثمناً لا يرى مسوغاً لايفائه

\* \* \*

وحسي الآن هذا القدر في الكلام عن الاخلاق أو علم الاخلاق . ولكن اراني مضطراً لان اعيد القول ان البيان التاريخي الذي سأثبته في هذه الصفحات عن أثر المسيحية في

افكار الناس وما يجب عليهم ان يعملوه ، وفي افعالهم وتصرفاتهم ،  
قد يكون بياناً صحيحاً ، ولو كنت انا مخطئاً في وجهة نظري هذه  
عن ماهية الاخلاق . ثم اني لست ادعي ان وجهة نظري هذه  
يعتقها كل الفكرين المسيحيين ( ولو اني مستعد لان احاج  
بالدليل انها تنسجم مع المسيحية ، بل تنسجم معها انسجاماً لا يتها  
لاية وجهة نظر أخرى ) . كذلك لست ادعي أن رأيي هذا ،  
كنظرية فلسفية ، يعتبر جزءاً من التعاليم التي لا يحسب  
الانسان مسيحياً الألبها . فالمسيحية ليست نظرية فلسفية ،  
انما هي طريق للحياة . ولكن بما ان كل نظرية فلسفية تعلق  
الحياة تعليلاً خاصاً ، فان الذين يتخذون المسيحية طريقاً  
لحياتهم يترقبون بالضرورة نظرية فلسفية تشرح لهم معنى هذا  
الطريق في الحياة .

### ما الذي اعني بالمسيحية ؟

قلت اني سأبين ماذا اعني بالاخلاق ، وماذا اعني بالمسيحية .  
وعند التكلم عن المسيحية سوف لا أقتصر على ما احتوى العهد  
الجديد بين دفتيه — ولو ان هذا الكتاب ، أو مجموعة الكتب ،  
ليست المصدر الوحيد لما نعرفه عن نشوء المسيحية وحسب ، بل هي

المتياس الذي جعلته أمامها الهيئات الدينية المسيحية حكماً ونبراساً تهتدي بنوره وتحتكم الى حقه ، في تعاليمها وممارساتها ، كلما انسافت الى طريق آلي من العادة المجردة ، مما تتعرض له دائماً الطبيعة البشرية .

لن اقتصر في كلامي عن المسيحية على ما احتواه العهد الجديد، بل سأضع أمامي في بحثي تطورات الحياة المسيحية كلها والتعاليم التي تسلسلت مدى الاجيال منذ عصر المسيح حتى اليوم . ولا معدى عن الاعتراف بانه ثار بين الذين يدعون أنفسهم مسيحيين نظريات مختلفة متضاربة في تأويل الدين الذي به يدينون — نظريات في التأويل أدت الى الانقسام الذي يحزن قلوب المسيحيين حقاً. وهم يكون ذلك الاتحاد الذي ينبغي أن يكون ديدناً وهدى لتلاميذ السيد الواحد ، الذي كان نبي الله الواحد ، والذي أعلن للناس الأب المحب الواحد للبشرية قاطبة . وفي وسع المسيحيين أن يروا في نظريات التأويل المختلفة التي ذهب اليها المعلمون والهيئات الدينية — مظاهر مختلفة للحياة الروحية كما أختبرها اولئك الافراد وتلك الجماعات عن مصدر واحد ، وإله واحد . وفي هذه النظريات المختلفة غنى ميراثهم المشترك .

ومع ذلك فلا مناص من الاسف والتأسي حيال الضعف في شعور الالفة المشتركة الذي نشأ عنه عجز من بيدهم السلطان على غلبة التجربة التي تعترضهم في انكار حرية الرأي وانتقاد مخالفهم في الفكر ، والذي عجز فيه من يجنحون الى هذه الحرية على غلبة التجربة التي تعترضهم في رغبتهم الاستمتاع بهذا الاختبار الجديد دون اشراك أحد معهم وجعله مشاعاً لجماعة المؤمنين .

### طريقة معالجة الموضوع :

وسأعالج موضوعي معالجة تاريخية . وليس من شك ان الدين المسيحي ، من ناحيته التاريخية ، نشأ في احضان الدين اليهودي . فمؤسسه ومعلموه الاولون كانوا قبل كل شيء يهوداً اتقياء . ولا غنى للباحثين في العهد الجديد عن التفكير في التقاليد الدينية اليهودية « كفرش background » تاريخي لما تضمنه العهد الجديد . ثم ان المسيحية قد انتشرت في العالم ، فيما وراء حدود فلسطين ، حاملة رسالة خلاص للبشرية . وبهذا قد اتصلت بكثير من الاديان الاخرى والفلسفات وطرائق العبادة التي لم تكن معروفة لدى الاولين الذي رأوا مجد الله في وجه

سيدهم<sup>(١)</sup> ، وخرجوا الى العالم يحملون قصة حياته وموته وقيامته .  
ولم تتصل المسيحية مجرد الاتصال بهذه الاديان والفلسفات  
وطرائق العبادة ، بل قد تعلمت المسيحية منها ما رآته لائقاً أو  
ضرورياً للتعبير عن اختبارها المتزايد في الله .

لهذا السبب نحسبه فرضاً لازماً على الباحثين في كتاب  
العهد الجديد (الانجيل) ، وفي الدين الذي نظر ، وما يزال  
ينظر ، الى هذا الكتاب مقياساً ونموذجاً للاحساس والفكر  
والعمل والكلام — ألا ينسوا ان الفكرة عن الله ، وعن علاقة  
الانسان بالله، التي يأخذها العهد الجديد على نفسه، والتي تضمنتها  
المسيحية ، ليست هي الفكرة التي كانت معروفة لدى الفيلسوف  
الاغريقي ، ولا الشاعر الشمالي ، ولا الحكيم الهندي ، مهما  
يكن المسيحيون قد تعلموا في الماضي ، أو سيتعلمون في المستقبل  
من الاختبارات الدينية التي عرفها اولئك المفكرون والانبياء  
الآخرون ، أو الامم ، أو مدارس الفكر التي ألتقت بها المسيحية  
في سيرها . انما الفكرة التي تضمنتها المسيحية مستمدة من انبياء  
العبرانيين وشعرائهم ، هي الفكرة التي اشتملت عليها أسفار  
العهد القديم .

(١) ٢ كور ٤: ٦

## قيمة العهد القديم في نظر المسيحية

وهذا هو السبب الذي جعل الكنيسة المسيحية تدمج أسفار العهد القديم ضمن كتبها المقدسة ، وستبقى حريصة على هذا الأدماج . نعم قد أدمجت في كتابها المقدس اخبار العهد القديم ، وقصص ابطاله وقديسيه ، وأناشيد شعرائه ، وقواعد العبادة والصلاة .

وُترى لما إذا دمجت الكنيسة المسيحية اسفار العهد القديم في كتابها المقدس وستبقى حريصة على هذا الأدماج ؟ الآن ما احتوته من اخبار التاريخ واناشيد الحرب وقصص الابطال والقديسين منقطعة النظير لا وجود لها في أي كتاب آخر ؟ أم لان تلك الاسفار قد انفردت بين كتب العالم القديمة في احتكار التعاليم الاخلاقية السامية والاشعار الدينية النبوية ؟ أظن كتباً قديمة أخرى تدّعي انها حوت شيئاً من هذا . انما قد حرصت الكنيسة المسيحية على ادماج اسفار العهد القديم في كتابها المقدس لانها تمتاز بميزة خاصة بين الكتب المقدسة ، لما تضمنته من رسالة إلهية ، هي مفتاح اللغة التي صاغت بها السماء إعلان الله ذاته في المسيح

وينبغي ألا يغرب عن البال ان من خصائص وجهة النظر

المسيحية نحو العالم احترامها للتاريخ وهو سير الحوادث وترتيبها الزمني ، وتعليق اهمية خطيرة عليه وهو أمر لا قيمة له في نظر كثير من الفلاسفات في الشرق والغرب . ويترب على هذا ان يكون لدين اسرائيل ، وان يكون العهد القديم الذي يتضمن هذا الدين ، مركز خاص به حيال المسيحية يمتاز عن سائر الكتب المقدسة القديمة مهما نضجت تسالمها الروحية ، وذلك لان بين انجيل المسيحية وبين العهد القديم صلوات سابقة وحلقات متواصلة

وان صح هذا القول من حيث نظم الدين والعبادة التي نسميها المسيحية ، فبالاولى ينطبق على الاخلاق التي هي نظم السلوك الفردي والاجتماعي المقترنة بالمسيحية . وقد يقال بحق إن اجلّ خدمة أضفتها المسيحية على الاخلاق المتعارفة في العالم المتحضر هذا العصر ، انما هي وليدة الاستئناس بالمثل الادبية الدينية اليهودية في اوساط الامم ، أي الشعوب الاخرى غير اسرائيل . وقد ألمح علماء اليهود بعض الاحيان الى ما يسمونه « عدم الانصاف » من جانب الكتاب المسيحيين الذين يدعون ان بعض طرائق الفكر والعمل مسيحية بحتة في طبيعتها بينما يظنها اليهود من خصائص دينهم ومميزاته . ولكن في أغلب الاحيان لا يفكر

اولئك الكتاب المسيحيون في موقفهم هذا (وهم ربما لم يحتكوا الا قليلاً بحياة جيرانهم اليهود الدينية) — في الموازنة أو التمييز بين المسيحية واليهودية، انما يفكرون فقط في تعاليم الكتاب المقدس الادبية والدينية، في العهدين القديم والجديد على السواء، وفي الموازنة بين هذه التعاليم، وبين المثل المألوفة المعترف بها في الحياة العالمية في العالم الغربي الحديث. ومما لا جدال فيه ان اليهودي التقى، والمسيحي التقى، يقفان في هذه الموازنة الى جانب واحد. وذلك لان جزءاً من الكتاب المقدس، وهو العهد القديم، مقدس في نظر الاثنین على السواء، اليهودي والمسيحي. والجزء الآخر، العهد الجديد، هو في حد ذاته من عمل اليهود، لان مؤسس المسيحية ومعلمها الاولين، ومؤلفي الاسفار الاولي، كانوا بلا شك يهوداً، كما اسلفت